الاستدراج

عناصر الموضوع

مفهوم الاستدراج	٢٧٤
الاستدراج في الاستعمال القرآني	٢٧٥
الألفاظ ذات الصلة	٢٧٦
الاستدراج سنة إلهية	٢٧٨
الحكمة من الاستدراج	٢٨٣
مجالات الاستدراج	٢٨٩
مظاهر الاستدراج	٢٩٦
نماذج قرآنية في الاستدراج	٣٠٢
عاقبة المستدرجين	٣٠٩

المجلد الثاني

مفهوم الاستدراج

أولًا: المعنى اللغوي:

يورد أهل اللغة وأصحاب المعاجم لفظة الاستدراج تحت مادة (درج)، والتي تأتي في اللغة بعدة معانٍ، كما يلي:

١. بمعنى المضي والذهاب والرجوع، قال ابن فارس: «درج، الدال والراء والجيم أصلٌ واحد يدل على مضي الشيء والـمضي في الشيء، من ذلك قولهم: درج الشيء، إذا مضى لسبيله، ورجع فلانٌ أدراجه، إذا رجع في الطريق الذي جاء منه»(١).

٢. بمعنى المنزلة والرتبة: جاء في لسان العرب: «درج البناء ودرجه، بالتثقيل: مراتب بعضها فوق بعضٍ، واحدته درجة ودرجةٌ مثال همزةٍ، الأخيرة عن ثعلبٍ، والدرجة: الرفعة في المنزلة»(٢).

٣. بمعنى اللف والطي والإدخال: قال في بصائر ذوي التمييز: «والإدراج: لف شيء في شيء، يقال: أدرج فلان في أكفانه. ودرجه في الأمر تدريجًا، أي: جره إليه قليلًا قليلًا. واستدرج الله المرء: جره قليلًا قليلًا إلى العذاب»(٣).

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف الجرجاني الاستدراج بقوله: «الاستدراج: أن يجعل الله تعالى العبد مقبول الحاجة وقتًا فوقتًا إلى أقصى عمره للابتدال بالبلاء والعذاب»(٤).

وقال الكفوي: الاستدراج: «هو أن يعطي الله العبد كل ما يريده في الدنيا ليزداد غيه وضلاله وجهله وعناده فيزداد كل يوم بعدًا من الله تعالى»(٥).

وتعريف الكفوي أقرب لمعنى الاستدراج في القرآن، والذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف:١٨٢].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٧٥.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٢٦٦.
(٣) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٩٢.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص٢٠.
(٥) الكليات، الكفوي ص١١٣.

الاستدراج في الاستعمال القرآني

ورد (الاستدراج) في القرآن مرتين[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢، القلم: ٤٤]

وجاء (الاستدراج) في القرآن الكريم بصيغة صرفية واحدة، هي صيغة الفعل المضارع، مبدوءة بسين الاستقبال ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾، والهاء مفعوله.

ومما يلاحظ في هذه الصيغة القرآنية تناسبها واتفاقها مع مدلول الاستدراج ومعناه، فطول الكلمة وكثرة حروفها - في تسعة حروف-، وطول فترة نطقها لوجود السكون في السين والدال، كل ذلك يتناسب مع معنى الاستدراج وهو الإمهال والإنظار للكافرين، ويوحي «بطول المدة، مدة عدم انصياعهم، وخصوصًا في صيغة (استفعل) ففيها تصيير لهم، وحركة جعلية متمهلة، وهذا ما يوحي به توالي المقاطع وتعددها مما يجسم طول فترة الغفلة التي يكون فيها الكافرون»[2].

وهذا كله من جمال اللفظ القرآني وإعجازه، وأيضًا فإن مجيء مادة الاستدراج بصيغة الفعل المضارع يدل على استمرار وتجدد هذه السنة الإلهية في الخلق، وهو أمر مشاهد في كل زمان في إمهال الله تعالى للظلمة والكافرين واستدراجهم.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبدالله جلغوم، ص ٥٠٠.
(٢) انظر: جمالية المفردة القرآنية، ياسوف ص١٨٥.
وانظر: وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبدالسلام الراغب ص٣٩٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإمهال:

الإمهال لغة:

من مهل، بمعنى «التؤدة والسكون، يقال: مهل في فعله، وعمل في مهلة، ويقال: مهلًا، نحو: رفقًا... وأمهلته: رفقت به»[١].

الإمهال اصطلاحًا:

التؤدة والسكون[٢]، فهو يتفق مع المعنى اللغوي للكلمة.

الصلة بين الإمهال والاستدراج:

الذي يظهر أن بين الإمهال والاستدراج عمومًا وخصوصًا، فالإمهال أعم من الاستدراج من جهة السبب، فقد يمهل الله تعالى الإنسان ليتوب، وقد يمهله ليزداد إثمًا، وهو أخص من الاستدراج من جهة أنه نوع من أنواعه، فالاستدراج يكون بإمهال بالعقوبة وتأخيرها، ويكون بغير ذلك كالإمداد والإنعام.

٢ الإملاء:

الإملاء لغة:

«(ملي) الميم واللام والحرف المعتل كلمةٌ واحدةٌ. هي تدل على الزمن الطويل. وأقام مليًا، أي: دهرًا طويلًا»[٣].

الإملاء اصطلاحًا:

«هو الإمهال والتأخير»[٤].

الصلة بين الإملاء والاستدراج:

أن الإملاء: هو الإمهال والتأخير، والاستدراج: هو أنه كلما جدد العبد خطيئة جدد الله له نعمة، وأنساه الاستغفار إلى أن يأخذه قليلًا قليلًا، ولا يباغته، وعلى هذا بينهما عموم وخصوص، إذ كل استدراج إملاء وليس كل إملاء استدراجًا[٥].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٨٠.
(٢) التوقيف، المناوي ص٣١٩.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٤٦.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري ص ٧٢.
(٥) انظر: المصدر السابق.

٣ الكيد:

الكيد لغةً:

هو المكر والخبث، والحيلة، والحرب[١].

الكيد اصطلاحًا:

«إرادة مضرة الغير خفيةً وهو من الخلق الحيلة السيئة، ومن الله سبحانه وتعالى التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق»[٢].

الصلة بين الكيد والاستدراج:

الكيد هو إرادة مضرة الغير بحيلة خفية، والاجتهاد في ذلك، وهو نوع من أنواع الاستدراج.

٤ المكر:

المكر لغة:

«الخديعة والاحتيال، وقال الليث: احتيالٌ في خفيةٍ»[٣].

المكر اصطلاحًا:

قال المناوي: «المكر: من جانب الحق: إرداف النعم مع المخالفة، وإبقاء الحال مع سوء الأدب، وإظهار الكرامات من غير جد. ومن جانب العبد: إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر»[٤].

الصلة بين المكر والاستدراج:

المكر من الله استدراج بالنعم، فالمكر فيه استدراج وفيه زيادة أيضًا على الاستدراج بحيث يكون قلب ذلك المستدرج آمنًا من كل جهة[٥].

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٣١٦.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص١٨٩، التوقيف، المناوي ص٢٨٦.
(٣) تاج العروس، الزبيدي ١٤/ ١٤٧.
(٤) التوقيف، المناوي ص٣١٢.
(٥) التمهيد لشرح كتاب التوحيد، صالح آل الشيخ ص٣٨٤.

الاستدراج سنة إلهية

من سنن الله تعالى في عباده - والتي لا تتبدل ولا تتغير- سنة الاستدراج، فالله تعالى أمر عباده بطاعته وامتثال أوامره، وحذرهم من معصيته ومخالفة أمره، فإن هم أطاعوه، فازوا وسعدوا في الدنيا والآخرة، وإن خالفوه ولم يستجيبوا لأمره، ذكّرهم الله تعالى، وحذرهم من عقابه.

ثم سلط عليهم البلاء والضراء حتى يردهم إليه وإلى طاعته، فإن تمادوا في إعراضهم وكفرهم رغم تذكير الله لهم ودعوته إياهم فإن الله تعالى يبدلهم مكان السيئة الحسنة ويوسع عليهم ويمدهم في طغيانهم، ويمهلهم، حتى إذا ازدادوا كفرًا وفجورًا، ونسوا لقاء ربهم أخذهم الله بغتة -وهم لا يشعرون- إلى عقابه الشديد، وهذا هو معنى استدراجه تعالى وكيده ومكره بمن عصاه وكفر به، وهي سنته الباقية في كل من يمضي على منوالهم.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران:١٣٧].

فأخبر تعالى عن سننه في الأمم الماضية المكذبة الكافرة في إمهاله لهم واستدراجه إياهم حتى يبلغ الكتاب فيهم أجله الذي أجله في إهلاكهم واستئصالهم، فأحل بهم عقوبته، وأنزلت بساحتهم نقمته، وتركهم لمن بعدهم أمثالًا وعبرًا[1].

قال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، وهذه الآية نزلت بعد معركة أحد تسلية وتعزية للمسلمين على ما أصابهم فيها، وبيان أن ما حدث للكفار من بعض الظفر بالمسلمين هو من استدراج الله تعالى بهم.

قال الإمام الطبري: «فسيروا - أيها الظانون، أن إدالتي[2] من أدلت من أهل الشرك يوم أحد على محمد وأصحابه، لغير استدراج مني لمن أشرك بي، وكفر برسلي، وخالف أمري - في ديار الأمم الذين كانوا قبلكم، ممن كان على مثل الذي عليه هؤلاء المكذبون برسولي والجاحدون وحدانيتي، فانظروا كيف كان عاقبة تكذيبهم أنبيائي، وما الذي آل إليه غب خلافهم أمري، وإنكارهم وحدانيتي، فتعلموا عند ذلك أن إدالتي من أدلت من المشركين على نبيي محمد وأصحابه بأحد، إنما هي استدراج وإمهال ليبلغ الكتاب أجله الذي أجلت لهم، ثم إما أن يؤول حالهم إلى مثل ما آل

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٢٨، البسيط، الواحدي ٥/ ٦١٢.

(٢) الإدالة: الغلبة، يقال: اللهم أدلني على فلانٍ وانصرني عليه. و دالت الأيام، أي: دارت والله يداولها بين الناس. و تداولته الأيدي أخذته هذه مرةً وهذه مرةً.
انظر: مختار الصحاح، الرازي ص١٠٩.

إليه حال الأمم الذين سلفوا قبلهم: من تعجيل العقوبة عليهم، أو ينيبوا إلى طاعتي واتباع رسولي»[1].

فبيّن تعالى أن الاستدراج سنة من سننه مع الكافرين والعصاة من خلقه، وقد أوضح الله تعالى معنى هذا الاستدراج في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦﴾ [الأعراف:٩٤-٩٦].

«أي: إن سنتنا قد جرت - ولا مبدل لها - أننا إذا أرسلنا نبيًا في قوم وكذبوه أنزلنا بهم الشدائد والمصائب»[2].

قال: ﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ «أي: ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ ما يصيبهم من فقر وحاجة، ونحو ذلك، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي: يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم»[3]، «ثم إذا لم يفد فيهم، واستمر استكبارهم، وازداد طغيانهم، ﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾ فأدر عليهم الأرزاق، وعافى أبدانهم، ورفع عنهم البلاء ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ أي: كثروا، وكثرت أرزاقهم وانبسطوا في نعمة الله وفضله، ونسوا ما مر عليهم من البلاء»[4].

قال ابن عاشور: «والمعنى أنا نأخذهم بما يغير حالهم التي كانوا فيها من رخاء وصحة، عسى أن يعلموا أن سلب النعمة عنهم أمارة على غضب الله عليهم من جراء تكذيبهم رسولهم فلا يهتدون، ثم نردهم إلى حالتهم الأولى إمهالًا لهم واستدراجًا فيزدادون ضلالًا، فإذا رأوا ذلك تعللوا لما أصابهم من البؤس والضر بأن ذلك التغيير إنما هو عارض من عوارض الزمان وأنه قد أصاب أسلافهم من قبلهم ولم يجئهم رسل»[5].

قال الخازن في معنى قوله تعالى: ﴿وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾، «يعني أنهم قالوا: هكذا عادة الدهر قديمًا وحديثًا لنا ولآبائنا ولم يكن ما مسنا من الشدة والضراء عقوبة لنا من الله تعالى على ما نحن عليه، فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم من قبل فإنهم لم يتركوا دينهم مما أصابهم من الضراء والسراء»[6].

وما أجمل ما قاله سيد قطب في تعقيبه على هذه الآيات وبيان سنة الله تعالى في

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٢٨.
(٢) تفسير المراغي ٩/ ١١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٤٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٩٧.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٨.
(٦) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٣٠.

الاستدراج، قال رحمه الله: «هذه وقفة في سياق السورة للتعقيب على ما مضى من قصص قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقفة لبيان سنة الله التي جرت بها مشيئته وحققها قدره بالمكذبين في كل قرية... وهي سنة واحدة يأخذ الله بها المكذبين ويتشكل بها تاريخ الإنسان في جانب منه أصيل، أن يأخذ الله المكذبين بالبأساء والضراء لعل قلوبهم ترق وتلين وتتجه إلى الله...

فإذا لم يستجيبوا أخذهم بالنعماء والسراء، وفتح عليهم الأبواب، وتركهم ينمون ويكثرون ويستمتعون، كل ذلك للابتلاء، حتى إذا انتهى بهم اليسر والعافية إلى الاستهتار والترخص، وإلى الغفلة وقلة المبالاة، وحسبوا أن الأمور تمضي جزافًا بلا قصد ولا غاية، وأن السراء تعقب الضراء من غير حكمة ولا ابتلاء، وأنه إنما أصابهم ما أصاب آباءهم من قبل؛ لأن الأمور تمضي هكذا بلا تدبير: ﴿وَقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾! أخذهم الله بغتة، وهم سادرون في هذه الغفلة»[1].

وقد بيّن الله تعالى هذا المعنى لسنة الاستدراج في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام:٤٢-٤٥].

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾، أي: «فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكنوا إلينا، ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ما رقت ولا خشعت.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: من الشرك والمعاصي[2]، وجيء بـ (لولا) ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم وقسوتهم وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان -ومنها الشرك- لهم.

فالاستدراك في الآية على المعنى لبيان الصارف لهم عن التضرع. وأنه لا مانع لهم إلا ذلك[3]، ولما كان حالهم كذلك من الإعراض وقسوة القلب، استدرجهم الله تعالى بنعمه وكثرة الخيرات، وأملى لهم، كما قال: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٣٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٥٦.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٥٣٤، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٣٥٩.

قال الحافظ ابن كثير: «أي: فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم، عياذًا بالله من مكره؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ أي: من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾، أي: على غفلة ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، أي: آيسون من كل خير»[1].

وفي الحديث عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج)**.

ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٤].[2]

فبيَن صلى الله عليه وسلم أن الاستدراج هو الفتح بالنعم مع الإقامة على المعصية، أما الفتح بالنعم مع الإيمان والتقوى فهي رحمة من الله تعالى بالمؤمنين، وسنة من سننه في إكرام أهل طاعته في الدنيا والآخرة، وقد بيَن الله تعالى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦].

فبعد أن بيَن تعالى أن الإنعام على سبيل الاستدراج، بيَن أنه يكون أيضًا على سبيل الإكرام لأهل الإيمان والتقوى.

وهكذا يبين الله تعالى لنا سنته في استدراج المكذبين بآياته من الأمم الكافرة والظالمة، كما صرح تعالى بذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣].

«قال الأزهري: أي: سنأخذهم قليلًا قليلًا من حيث لا يحتسبون، وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به ويركنون إليه، ثم يأخذهم على غرتهم أغفل ما يكونون، وقال الضحاك: كلما جددوا لنا معصية جددنا لهم نعمة»[3].

قال تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [القلم:٤٤].

قال الفخر الرازي: «ذرني وإياه، يريد كله إلي، فإني أكفيكه، كأنه يقول: يا محمد حسبك انتقامًا منه أن تكل أمره إلي، وتخلي بيني وبينه، فإني عالم بما يجب أن يفعل به قادر على ذلك»[4].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٥٦.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧٣١١، ٢٨/ ٥٤٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم ٥٥٣، ١/ ١٥٨.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٧٣.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦١٥.

وقال ابن كثير: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن، وهذا تهديد شديد، أي: دعني وإياه مني ومنه، أنا أعلم به كيف أستدرجه، وأمده في غيه وأنظر ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر؛ ولهذا قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة، وهو في نفس الأمر إهانة، كما قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦].

ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝٤٥﴾ [القلم:٤٥]، أي: وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم، وذلك من كيدي ومكري بهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَيْدِي مَتِينٌ﴾، أي: عظيم لمن خالف أمري، وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي[1].

فصرح تعالى بتهديده ووعيده لأهل التكذيب والعناد بالكيد لهم واستدراجهم، ولا شك أن من هدده رب العالمين بذلك، فهو من أخسر الخاسرين في الدنيا والآخرة.

قال الخازن: «وقيل في معنى الآية: كلما أذنبوا ذنبًا جددنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار والتوبة، وهذا هو الاستدراج؛ لأنهم يحسبونه تفضيلًا لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب إهلاكهم فعلى العبد المسلم إذا تجددت عنده نعمة أن يقابلها بالشكر، وإذا أذنب ذنبًا أن يعاجله بالاستغفار والتوبة»[2].

ومراد الإمام الخازن: أي حتى لا يكون ذلك الإنعام استدراجًا فاشكروا الله على نعمه، واستغفروه من ذنوبكم.

واستدراجه تعالى ليس قاصرًا على الأمم فحسب، وإنما يقع على الأفراد أيضًا.

قال تعالى مبينًا استدراجه لبعض الأفراد: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٩ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٥٠﴾ [الزمر:٤٩-٥٠].

فأخبر الله تعالى عن الإنسان «أنه في حال الضراء يضرع إلى الله عز وجل، وينيب إليه ويدعوه، وإذا خوله منه نعمة بغى وطغى، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي: لما يعلم الله من استحقاقي له، ولولا أني عند الله تعالى خصيص لما خولني هذا!»[3].

وقال الخازن: «﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يعني من الله تعالى، علم أني له أهل، وقيل: على خير علمه الله عنده، ثم قال تعالى في رد ما قاله: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ يعني تلك النعمة استدراج من الله تعالى وامتحان وبلية، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني أنها

(١) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٢٠٠.

(٢) لباب التأويل، ٤/ ٣٣١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٠٥.

استدراج من الله تعالى»[1].

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، كقارون، كما ذكر تعالى ذلك عنه في قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٧٨].

وهكذا بين الله تعالى أن الاستدراج سنة من سننه مع عباده أممًا وأفرادًا.

وهذه السنة الإلهية الحكيمة لها علاقة وثيقة بالسنن الإلهية الأخرى، كعقوبة الظالمين والانتقام منهم، فالله تعالى يملي للظالم ويمهله ليزداد بذلك بغيًا وإثمًا، ثم يأخذه بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر، وسنة الابتلاء والامتحان، ليبتلي عباده في إيمانهم وصبرهم.

الحكمة من الاستدراج

أولًا: الإمهال للتوبة.

من حكمة الله تعالى في استدراج عباده أن يردهم إلى التوبة والإنابة إليه، وهو من رحمته تعالى بهم، فيمهلهم الله وينظرهم، ويبتليهم بالبأساء والضراء لعلهم يرجعون إليه، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة:١٢٦].

وهي في سياق الحديث عن المنافقين وفضائحهم، وقد تضمنت توبيخهم وتقريعهم والإنكار عليهم في إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق مع ما يصيبهم من البلايا والأمراض.

قال السعدي رحمه الله: «قال تعالى -موبخًا لهم على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق-: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بما يصيبهم من البلايا والأمراض، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم، ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عما هم عليه من الشر ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ما ينفعهم، فيفعلونه، وما يضرهم، فيتركونه، فالله تعالى يبتليهم -كما هي سنته في سائر الأمم- بالسراء والضراء وبالأوامر

(١) لباب التأويل، ٤/ ٦٠.
وانظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ١٢٤.

والنواهي ليرجعوا إليه، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون»[1].

وقال البقاعي رحمه الله: «فالآية ذامة لهم على عدم التوبة بإصابة المصائب لعدم تذكر أنه سبحانه ما أصابهم بها إلا بذنوبهم ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

كما أن أحدهم لا يعاقب فتاه إلا بذنب وما لم يتب فهو يوالي عقابه»[2].

وقال الواحدي: «قال أهل المعاني: وهذه الآية بيان عما يوجبه تقلب الأحوال مرة بعد مرة من تذكر العبرة التي تدعو إلى إخلاص الطاعة والتوبة من كل خطيئة لشدة الحاجة إلى من يكشف البلية ويسبغ النعمة»[3].

وهكذا يبين الله تعالى توبيخه وإنكاره على من لم يعتبر بحصول البلاء ونزول الضراء وتغير الأحوال في تجديد التوبة والإنابة إليه.

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم:٤١].

وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة:٢١].

أي: لنذيقنهم من عذاب الدنيا بالقتل والأسر والجدب سنين والأمراض قبل عذاب الآخرة لعلهم يرجعون إلى الإيمان[4].

وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزخرف:٤٨].

وغير ذلك من الآيات التي توضح استدراج الله تعالى لهم بالعقاب ليتوبوا وينيبوا، قبل أن يدركهم العذاب الأكبر يوم القيامة.

وهذا النوع من الاستدراج هو النوع الأول الذي أشار إليه ابن الحاج رحمه الله في قوله: «الاستدراج اسم لمعنيين فأحد المعنيين: استدراج عقوبة للسيئة تنبيهًا على الإنابة، والمعنى الثاني استدراج لا إنابة فيه، ولا رجوع، فنعوذ بالله من الاستدراج»[5].

ثانيًا: الزيادة في الإثم.

ومن حكم استدراج الله تعالى للكفرة والمجرمين من خلقه أن يزدادوا إثمًا وجرمًا، فيزيد الله عقابهم بذلك، فالله تعالى يمهل الكافرين وينظرهم -استدراجًا منه تعالى- حتى يصلوا إلى درجة عظيمة من الإثم، ثم يعاجلهم بالعقوبة.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٦.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ٩/ ٥٣.
(٣) البسيط، الواحدي ١١/ ١٠٢.
(٤) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص٥٤٧.
(٥) المدخل، ابن الحاج ٣/ ٦٩.

﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران:١٧٨].

وهذه الآية نزلت عقب غزوة أحد، تسلية للمؤمنين على ما وقع لهم فيها من بلاء، وبيانًا لسنة الله تعالى في استدراج الكفرة والمنافقين، أي: ليعلم المؤمنون أن إملاء الله تعالى لأهل الكفر ببقائهم ونجاتهم من سيوف المسلمين يوم أحد إنما هو من استدارج الله تعالى لهم وكيده بهم.

وذلك أنهم يزدادون بهذا الإمهال إثمًا وجرمًا، فيزيد الله بذلك في عقابهم، ويشهد لهذا المعنى قراءة الفعل ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ في الآية بتاء الخطاب الفوقية[1]، أي: لا تحسبن يا محمد صلى الله عليه وسلم[2].

وفي ذلك تحسير لأهل الكفر وتثبيط لعزائمهم، فلا يظنون أن ما هم فيه من الإمهال والإنظار خير لهم[3]، بل هو استدراج يعقبه عذاب ونكال، ويشهد لهذا المعنى قراءة الفعل ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ في الآية بياء الغيبة التحتية.

وكل ذلك مما يجنيه الكافر على نفسه بإعراضه عن طاعة ربه والتزام أمره، مع إرسال الله رسله ونذره إليه، فلما أعرض ونأى بجانبه، استدرجه الله إلى العذاب الشديد والنكال العظيم، فأمهله وزاد في عمره، ووسع في رزقه، وألهاه بدنياه، ونعمه فيها، حتى إذا جاءت ساعة أجله، أخذه الله وهو على حاله غافلًا ساهيًا قد كبل بالخطايا والآثام.

ومن أجل هذه الحكمة أخر الله تعالى إبليس وأنظره إلى يوم البعث لما طلب من الله تعالى ذلك.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر:٣٦-٣٨].

قال ابن كثير: «لما تحقق الغضب الذي لا مرد له، سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث وأنه أجيب إلى ذلك استدراجًا له وإمهالًا»[4].

ثالثًا: الزيادة في الضلال.

ومن حكم استدراج الله تعالى للكفرة والمجرمين من خلقه أن يزدادوا ضلالًا وانحرافًا، وذلك عقوبة لهم على زيغهم وانحرافهم، واختيارهم سبيل الضلال وسلوكه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف:٥].

(١) قرأ حمزة بتاء الخطاب، والباقون بياء الغيبة. انظر: البدور الزاهرة، عبد الفتاح القاضي ص٧٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٨٧، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٦٢.

(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ٢/ ٣٤٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٣٥.

أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[1]، فالله تعالى لا يهدي من أراد الضلالة وسعى لها، بل إن الله تعالى يمد أهل الضلال في ضلالهم حتى يزدادوا بذلك عذابًا وعقابًا.

قال تعالى في وصف الكفار عند سماعهم آياته تتلى عليهم: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ٧٣ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ٧٤ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ٧٥﴾ [مريم:٧٣-٧٥].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيات: «يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان: أنهم يصدون عن ذلك، ويعرضون ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم: ﴿خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ أي: أحسن منازل، وأرفع دورًا، وأحسن نديًا وهو مجمع الرجال للحديث، أي: ناديهم أعمر وأكثر واردًا وطارقًا، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق؟ كما قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١﴾ [الأحقاف:١١].

وقال تعالى على لسان قوم نوح: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء:١١١].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾ [الأنعام:٥٣].

ولهذا قال تعالى -ردًا عليهم شبهتهم-: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٖ﴾ أي: وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم، ﴿هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا﴾ أي: كانوا أحسن من هؤلاء أموالًا وأمتعة ومناظر وأشكالًا»[2].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾، أي: «قل يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم، القائلين إذا تتلى عليهم آياتنا: أي الفريقين منا ومنكم خير مقامًا وأحسن نديًا، من كان منا ومنكم في الضلالة جائرًا عن طريق الحق،... فليطول

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٠٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٥٧.

له الله في ضلالته، وليمله فيها إملاء»[1].

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾ [مريم:٧٥].

قال أبو زهرة رحمه الله: «يقول تعالى ردًا على المشركين في غرورهم بالمال والبنين ومتعة الجاه والسلطان: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم يأمره سبحانه وتعالى بأن يبين لهم الحق وسنة الله تعالى في أمر الضلالة والهداية، فهو سبحانه يمد الذين أرادوا الضلالة وسلكوا سبيلها وأخذوا في أسبابها، يمدهم فيها مدًا حتى يحسبوا أن الأمر إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف:١٨٣].

يمهلهم سبحانه ويتركهم في غيهم يعمهون، ويزيدهم بالمال ويعطيهم، حتى يفرقهم الغرور ويجعلهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

وقال تعالى بلفظ الأمر: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ جاء الخبر على صيغة الأمر؛ لبيان أن ذلك بإرادة الله وكأنه يأمره به أمرًا، وهو استدراج من الله تعالى لهم... وأكد سبحانه إمهالهم واستدراجهم بالعطاء بوفرة عليهم بالمصدر (مدًا)»[2].

وقد بين الله تعالى في الآيات التي تلي هذه الآية شيئًا من مدهم في ضلالهم، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم:٨٣].

أي: سلطناهم عليهم بالإغواء، وقيضناهم لهم[3]، قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ألم تر يا محمد أنا أرسلنا الشياطين على أهل الكفر بالله (تؤزهم) يقول: تحركهم بالإغواء والإضلال، فتزعجهم إلى معاصي الله، وتغريهم بها حتى يواقعوها (أزا) إزعاجًا وإغواء»[4].

وجعل تعالى ذلك لهم جزاءً على إعراضهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف:٣٦].

قال الشنقيطي عند تفسير لآية سورة مريم: «في معنى هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند العلماء، وكلاهما يشهد له قرآن: الأول: أن الله جل وعلا أمر نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة أن يقول هذه الكلمات كدعاء المباهلة بينه وبين المشركين، أي: قل يا نبي

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٤٣.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٦٨٠.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١٥٠، أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٥١١.

(٤) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٥١.

الله لهؤلاء المشركين الذين ادعوا أنهم خير منكم، من كان منا ومنكم في الضلالة - أي الكفر والضلال عن طريق الحق.

﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ أي: فأمهله الرحمن إمهالًا فيما هو فيه حتى يستدرجه بالإمهال ويموت على ذلك ولا يرجع عنه، بل يستمر على ذلك حتى يرى ما يوعده الله، وهو: إما عذاب في الدنيا بأيدي المسلمين، كقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة:١٤].

أو بغير ذلك، وإما عذاب الآخرة إن ماتوا وهم على ذلك الكفر، وعلى ذلك التفسير فصيغة الطلب المدلول عليها باللام في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ على بابها، وعليه فهي لام الدعاء بالإمهال في الضلال على الضال من الفريقين، حتى يرى ما يوعده من الشر وهو على أقبح حال من الكفر والضلال، والوجه الثاني: أن صيغة الطلب في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾، يراد بها الإخبار عن سنة الله في الضالين، وعليه فالمعنى: أن الله أجرى العادة بأنه يمهل الضال ويملي له فيستدرجه بذلك حتى يرى ما يوعده، وهو في غفلة وكفر وضلال»[(١)].

ثم قال رحمه الله: «قوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم:٧٦].

دليل على رجحان القول الثاني في الآية المتقدمة، وأن المعنى: أن من كان في الضلالة زاده الله ضلالة، ومن اهتدى زاده الله هدى، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة، كقوله في الضلال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

وقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء:١٥٥]»[(٢)].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٤٨٧، بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٤٨٩.

مجالات الاستدراج

للاستدراج مجالات عدة منها: الكفر، والنفاق، والظلم، والفسق والمعاصي.

أولًا: الكفر:

الكافرون هم أعظم الخلق استدراجًا إلى عقاب الله تعالى، وعذابه الأليم، وهو الخلود في نار جهنم، وأكثر الخلق اغترارًا بإمهال الله لهم وإنعامه عليهم، وما ذلك إلا لكفرهم وجهلهم بربهم وسننه، فالله تعالى يعجل لهم طيباتهم في الدنيا ويمهلهم ويؤخرهم إلى أن يأتيهم ذلك العذاب الأليم الذي توعدهم به، وأعده لهم، وهم في غفلتهم وطغيانهم، ويحسبون أن ذلك الإمهال خيرٌ لهم، قال الله تعالى مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عمران:١٧٦].

فمن شدة حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الناس كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق، فقال تعالى له: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته ألا يجعل لهم نصيبًا في الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1] يؤخرون له ويستدرجون.

وقال تعالى مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم أيضًا: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾ [آل عمران:١٩٦].

«أي: لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه، من النعمة والغبطة والسرور، فعما قليل يزول هذا كله عنهم، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة، فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجًا، وجميع ما هم فيه ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران:١٩٧]»[2].

وقال الطبري: «نهى الله تعالى ذكره نبيه صلى الله عليه وسلم عن الاغترار بضربهم في البلاد، وإمهال الله إياهم مع شركهم وجحودهم نعمه، وعبادتهم غيره، وخرج الخطاب بذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، والمعني به غيره من أتباعه وأصحابه»[3].

والمقصود من هذه الآية التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز، والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٧٣.
(٢) المصدر السابق ٢/ ١٩٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٩٣.

به قليلًا ويعذبون عليه طويلًا[1].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢].

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۖ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان:٢٣-٢٤].

قال الشعراوي: «هذا التمتع بزينة الحياة الدنيا ما هو إلا استدراج لهم لا تكريم، وقلنا: إنك لا تلقي بعدوك من على الحصيرة مثلًا، إنما تعليه وترفعه ليكون أخذه أليمًا وشديدًا، كذلك الحق سبحانه يمتعهم، لكن لفترة محدودة لتكون حسرتهم أعظم إذا ما أخذهم من هذا النعيم»[2].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف:١٨٢].

وقال: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق:١٧].

أي: «قليلًا حتى أهلكهم»[3]، وهي آيات صريحة في استدراجه تعالى لهم.

وقد أخبر تعالى في كتابه عن بعض من استدرجهم من أهل الكفر والتكذيب، وكيف أنه أمهلهم وأمدهم بالمال الكثير والنعيم الكبير، من ذلك قوله تعالى عن الوليد بن المغيرة أحد زعماء كفار قريش وساداتهم: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ [المدثر:١١-١٧].

قال المفسرون[4]: نزلت هذه الآيات في الوليد بن المغيرة يتوعده الله ويهدده.

قال: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾، «أي: دعني واتركني وهي كلمة تهديد ووعيد، والمعنى دعني والذي خلقته حال كونه وحيدًا في بطن أمه لا مال ولا ولد، هذا على أن وحيدًا منتصب على الحال من الموصول أو من الضمير العائد المحذوف، ويجوز أن يكون حالًا من الياء في ذرني، أي: دعني وحدي معه»[5].

ثم عدد الله تعالى نعمه عليه، ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾، أي: رزقه مالًا واسعًا كثيرًا، ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾، لا يغيبون، أي: حضورًا عنده لا يسافرون في التجارات، بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم، يتمتع بهم ويتملى بهم[6]،

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦٢.
(٢) تفسير الشعراوي، الخواطر ١٩/ ١١٧١٤.
(٣) البسيط، الواحدي ٢٣/ ٤٢٢.
(٤) انظر: البسيط، الواحدي ٢٢/ ٤١٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٧١.
(٥) فتح البيان، القنوجي ١٤/ ٤٠٦.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٦٥.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدًا ١٤﴾ أي: «بسطت له في العيش والجاه والرياسة، ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥﴾ أي: من المال والولد والجاه، أو من النعيم الأخروي. وهذا أظهر لقوله: ﴿كَلَّآ﴾ أي: لا يكون ما يأمل ويرجو؛ لأن الجدير بالزيادة من نعيم الآخرة هم المتقون، لا هو، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدًا ١٦﴾ أي: معانداً للحجج المنزلة والمرسلة»[1].

قال السعدي في معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥﴾ «أي: يطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا»[2].

وهذا من استدراج الله تعالى له أن مده بالنعم والآلاء رغم كفره وعناده، حتى ظن الوليد أن ذلك لمرضاة الله عنه وحبه له، ومن ثم طمع بأمثال ذلك في الآخرة، فأنكر الله تعالى ذلك عليه وبيّن بطلانه، بل وتوعد الوليد بالعذاب الشديد في قوله: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ٢٦﴾ [المدثر:٢٦].

أي: سأغمره فيها من جميع جهاته، ثم هول تعالى ذلك وفخمه فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧﴾ [المدثر:٢٧].

ثم فسر ذلك بقوله: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨﴾ [المدثر:٢٨].

أي: تأكل لحومهم وعروقهم وعصبهم وجلودهم، ثم تبدل، وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيون[3]، فبيّن تعالى أن ما أوتيه الوليد بن المغيرة من الأموال والأولاد والرياسة لا يغني عنه في الآخرة شيئًا، ولا يدل على رضا ربه عنه، وإنما هو استدراج له حتى يبقى على كفره وغيه.

وقال تعالى في حق أبي لهب - وهو من سادات قريش وزعماء الكفر -: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢﴾ [المسد:١-٢].

فتوعده تعالى بالخسران، وبين تعالى أن ماله لا يغني عنه من عذاب الله شيئًا، وهكذا يبين الله تعالى استدراجه لأهل الكفر وإمدادهم في الحياة الدنيا.

وقد بين تعالى أن أهل الكفر والشرك يغترون بهذا الاستدراج، ويحسبونه من الخير لهم، ومن رضا الله عنهم وعن طريقتهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ [سبأ:٣٥].

وقوله: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦].

قال ابن كثير: «يعني: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟! كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحۡنُ

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٩٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٧٦.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٦٧.

﴿أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، لقد أخطؤوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجًا وإنظارًا وإملاء؛ ولهذا قال: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾»[1].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٦].

والآيات عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود، والمعنى: أي قل يا محمد: هل نخبركم ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾؟

ثم فسرهم فقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: عملوا أعمالًا باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، أي: يعتقدون أنهم على شيء، وأنهم مقبولون محبوبون، وهو من استدراج الله تعالى لهم، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾، أي:جحدوا آيات الله في الدنيا، وبراهينه التي أقام على وحدانيته وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ أي: لا نثقل موازينهم؛ لأنها خالية عن الخير[2].

ثانيًا: النفاق:

ومن مجالات الاستدراج: النفاق.

قال تعالى عن المنافقين: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة:٩]إلى قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة:١٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

فالمنافقون يظنون أنهم بإظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر يخادعون المؤمنين، ويطلعون على أسرارهم، ويأمنونهم على أنفسهم، ويشاركونهم في إجراء أحكام الإسلام عليهم، وما علم المنافقون أنهم في حقيقة الأمر لا يخدعون إلا أنفسهم، «إذ ضرر عملهم لاحقٌ بهم، فهم يغرون أنفسهم بالأكاذيب ويلقونها في مهاوى الهلاك والردى»[3]، فالله تعالى يمهلهم ويمدهم في طغيانهم وغيهم استدراجًا إلى ما أعده لهم من عذابه الأليم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء:١٤٥].

يقول سيد قطب: «وهذه لمسة أخرى

(١) المصدر السابق ٥/ ٤٧٩.

(٢) انظر: المصدر السابق ٥/ ٢٠٢.

(٣) تفسير المراغي ١/ ٥٠.

من لمسات المنهج للقلوب المؤمنة. فإن هذه القلوب لا بد أن تشمئز من قوم يخادعون الله. فإن هذه القلوب تعرف أن الله سبحانه- لا يخدع - وهو يعلم السر وأخفى، وهي تدرك أن الذي يحاول أن يخدع الله لا بد أن تكون نفسه محتوية على قدر من السوء ومن الجهل ومن الغفلة كبير. ومن ثم تشمئز وتحتقر وتستصغر كذلك هؤلاء المخادعين! ويقرر عقب هذه اللمسة أنهم يخادعون الله ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ أي: مستدرجهم وتاركهم في غيهم لا يقرعهم بمصيبة تنبههم ولا يوقظهم بقارعة تفتح عيونهم، تاركهم يمضون في طريق الهاوية حتى يسقطوا»[(١)].

ثالثًا: الظلم:

ومن مجالات الاستدراج الظلم والبغي، فالظالمون يتسلطون على الضعفاء والمساكين، ويسلبونهم حقوقهم، ويقهرونهم ويستعبدونهم، ومن ذلك ما قصه الله تعالى في كتابه من نبأ فرعون طاغية زمانه مع بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص:٤].

قال المفسرون: يخبر تعالى عن فرعون مصر أنه تكبر وتجبر وطغى، وجعل أهل تلك البلاد أصنافًا، قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته، وكان يستضعف طائفة منهم، وهم بنو إسرائيل، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم، فكان فرعون يستعملهم في أخس الأعمال، ويكدهم ليلًا ونهارًا في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم، ويستحيي نساءهم، أي: يستبقيهن أحياءً، إهانة لهم واحتقارًا، وبنو إسرائيل مستضعفون عاجزون عن دفع الأذى عن أنفسهم[(٢)].

وقد أملى الله تعالى لفرعون وأمهله حتى يزداد إثمًا وبغيًا، ويزداد بنو إسرائيل صبرًا وثوابًا، ثم إذا جاء أجله الذي أجله الله له أخذه أخذ عزيز مقتدر، وجعله عبرة لمن يعتبر.

قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف:١٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النازعات:

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٨٣- ٧٨٤، وانظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٢٧٨.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١٨٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢١.

٢٥-٢٦].

وقد بيَن الله تعالى إمهاله للظالمين واستدراجه لهم في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج:٤٨].

أي: «وكثير من القرى كانت ظالمة بإصرار أهلها على الكفر، فأمهلتهم، ولم أعاجلهم بالعقوبة فاغتروا، ثم أخذتهم بعذابي في الدنيا، وإلي مرجعهم بعد هلاكهم، فأعذبهم بما يستحقون»(١).

وجاء في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته).

قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢](٢).

فالله تعالى يمهل الظالم إلى وقت عذابه، ولكنه لا يهمله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٣].

أي: لا تحسبه إذ أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعده عدا، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: من شدة الأهوال يوم القيامة(٣)، «يقال شخص بصر فلان أي فتحه فلم يغمضه»(٤).

قال القاسمي: «﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي: بإمهالهم متمتعين بشهواتهم، ولا يعجل عقوبتهم ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي ترتفع فيه أبصار أهل الموقف، لهول ما يرون، فلا تقر أعينهم في أماكنها ولا تطرف»(٥).

والجملة تعليل للنهي السابق في الآية، وفيها تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإعلام للمشركين بأن تأخير العذاب عنهم ليس للرضا بأفعالهم، بل سنة الله سبحانه في إمهال الظالمين والعصاة(٦).

ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم، ومجيئهم إلى المحشر، فقال: ﴿مُهْطِعِينَ

(١) التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير ص٣٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمةٌ إن أخذه أليمٌ شديدٌ)، رقم ٤٦٨٦، ٦/ ٧٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٨٣، ٤/ ١٩٩٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥١٥.

(٤) تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص٣٣٦.

(٥) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٣٢١.

(٦) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٣٨.

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي: «يقوم الظالمون من قبورهم مسرعين لإجابة الداعي رافعي رؤوسهم لا يبصرون شيئًا لهول الموقف، وقلوبهم خالية ليس فيها شيء؛ لكثرة الخوف والوجل من هول ما ترى»[1].

رابعًا: الفسق وسائر المعاصي:

ومن مجالات الاستدراج الفسق وسائر المعاصي، فإن الله عز وجل يوسع على الفساق العصاة مع انهماكهم في معصيته، وييسر أمورهم، وما ذلك إلا من استدراجه تعالى لهم، حتى يترك هؤلاء العصاة الغافلون التوبة والإنابة مما فعلوه، ويتمادوا في معاصيهم وآثامهم، فيأخذهم بغتة.

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج)**.

ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٤][2].

فيبين النبي صلى الله عليه وسلم أن بسط الدنيا للعاصي ليس دليلًا على كرامته على الله عز وجل أو محبة الله عز وجل له، بل الحقيقة أن ذلك من مكر الله عز وجل به واستدراجه له، فيعطيه الله من الدنيا ما يحب، ويبسط له الأرزاق، حتى ينسيه التوبة والإنابة، وما ينفع العاصي ما هو فيه من النعيم يوم القيامة شيئًا، كما قال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧].

ومن استدراجه تعالى للعصاة أن ييسر لهم أسباب المعصية ويعينهم عليها.

يقول الشيخ ابن عثيمين: «انتبه لهذا الاستدراج من الله عز وجل إذا يسر الله لك أسباب المعصية، فلا تفعل، فإن الله ربما ييسر أسباب المعصية للإنسان فتنة له، أرأيتم أصحاب السبت من بني إسرائيل يسرت لهم أسباب المعصية فتنة، وهي أن الله حرم عليهم صيد السمك يوم السبت، فكانت الحوت تأتي يوم السبت شرعًا على وجه الماء، وبكثرة عظيمة، لكنهم ملتزمون لم يصيدوا السمك في يوم السبت، فلما طال عليهم الأمد عجزوا عن ملك أنفسهم، فرجعوا إلى طبيعتهم وهي الغدر والحيلة والمكر، فاحتالوا على صيد السمك، صاروا

(١) التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير ص٢٦١.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧٣١١، ٢٨/ ٥٤٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم ٥٥٣، ١/ ١٥٨.

يجعلون شباكًا يوم الجمعة فتأتي الحيتان وتدخل في الشباك، فإذا كان يوم الأحد أخذوا الحيتان، وهذه حيلة واضحة، فقلبهم الله قردة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة:٦٥].

وفي صدر هذه الأمة حرم الله على المحرمين الصيد، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:٩٥].

فبعث الله الصيد عليهم وهم محرمون تناله أيديهم ورماحهم[(١)]، يعني أن الذي يمشي على الأرض يمسكونه باليد، مثل: الأرنب والغزال، يمسكه الواحد باليد، والطائر الذي كان لا ينال إلا بالسهم لأنه بعيد، صار يطير وكأنه على الأرض، الرمح يدركه، فتنة، فهنا يسر الله لهم أسباب المعصية، لكن الصحابة رضي الله عنهم، وهم خير الناس لم يأخذ أحد منهم صيدة واحدة رضي الله عنهم، بينما بنو إسرائيل تحيلوا وخادعوا الله، أما سلف هذه الأمة، وفقنا الله لموافقتهم في الدنيا في أعمالهم، وفي الآخرة في مساكنهم فإنهم لم يأخذوا»[(٢)].

مظاهر الاستدراج

أولًا: الفتح بالنعم:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٤٤].

أي: لما نسوا ما ذكروا به من البأساء والضراء، فتحنا عليهم أبواب كل شيء من فنون النعماء استدراجًا منا لهم[(٣)].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة:٥٥].

فنهى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن أن يستحسن شيئًا مما أنعم به على المنافقين من كثرة الأموال والأولاد؛ لأنها استدراج من الله تعالى لهم، يريد أن يعذبهم بها في الدنيا بما يلقون في جمعها من المشقة، وفي حفظها من الوجل، وفي إنفاقها من الكره، وفيها من المصائب[(٤)]، «ويميتهم حين يميتهم على الكفر، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم - عياذًا بالله

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [المائدة:٩٤].

(٢) تفسير سور الحجرات - الحديد، ابن عثيمين ص٢٨١.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ١٣٣.

(٤) انظر: البسيط، الواحدي ١٠/ ٤٩١، ٤٩٣، تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٢٤٩، التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٨٧٢.

من ذلك -، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه»[1].

قال أبو السعود: «﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر في العاقبة، فيكون ذلك لهم نقمة لا نعمة، وأصل الزهوق الخروج بصعوبة»[2].

وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر:٨٧-٨٨].

قال الشنقيطي: «لما بين تعالى أنه آتى النبي صلى الله عليه وسلم السبع المثاني والقرآن العظيم، وذلك أكبر نصيب، وأعظم حظ عند الله تعالى، نهاه أن يمد عينيه إلى متاع الحياة الدنيا الذي متع به الكفار؛ لأن من أعطاه ربه جل وعلا النصيب الأكبر والحظ الأوفر، لا ينبغي له أن ينظر إلى النصيب الأحقر الأخس، ولاسيما إذا كان صاحبه إنما أعطيه لأجل الفتنة والاختبار.

وأوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع؛ كقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه:١٣٠-١٣٢].

والمراد بالأزواج هنا: الأصناف من الذين متعهم الله بالدنيا»[3].

«والمعنى: لا تحفل- أيها الرسول الكريم- ولا تطمح ببصرك طموح الراغب في ذلك المتاع الزائل، الذي متع الله تعالى به أصنافًا من المشركين فإن ما بين أيديهم منه، شيء سينتهي عما قريب، وقد آتاهم الله تعالى إياه على سبيل الاستدراج والإملاء، وأعطاك ما هو خير منه وأبقى، وهو القرآن العظيم»[4].

وقال تعالى مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

ونزلت هذه الآية في سادات كفار قريش، الذين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم طرد فقراء المسلمين الذين -يدعون الله غدوًا وعشيًا- من حوله[5]، فأمر الله نبيه صلى

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٦٣.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٧٤.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣١٥.
(٤) الوسيط، طنطاوي ٨/ ٧٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٨.

الله عليه وسلم بالصبر على أهل الإيمان من الذاكرين العابدين، ونهاه عن طاعة أهل الكفر ممن استدرجهم تعالى بنعمه، وأغفلهم بها عن ذكره.

قال ابن كثير: «﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾، أي: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾، أي: أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعًا له، ولا محبًا لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١]»[1].

وهكذا يبين تعالى أن هذا الإنعام على بعض الكفار دون المؤمنين ليس حبًا لهم أو رضًا عنهم، وإنما أغفلهم الله بها عن ذكره وطاعته ولقائه، استدراجًا منه تعالى لهم.

وقد بيّن الله تعالى اغترار بعض عباده واستدراجهم بما أنعم عليهم من النعم، من ذلك قوله تعالى مخبرًا عن أهل الكفر: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف:١١].

أي: أنكروا أن يمن الله على الضعفاء والفقراء من المؤمنين بالإيمان -إن كان خيرًا - دونهم، زعما منهم أنهم أحق بكل خير منهم.

قال الشنقيطي: «مرادهم أن فقراء المسلمين وضعفاءهم - كبلال وعمار وصهيب وخباب ونحوهم - أحقر عند الله من أن يختار لهم الطريق التي فيها الخير، وأنهم هم الذين لهم عند الله عظمة وجاه واستحقاق السبق لكل خير؛ لزعمهم أن الله أكرمهم في الدنيا بالمال والجاه، وأن أولئك الفقراء لا مال لهم ولا جاه، وأن ذلك التفضيل في الدنيا يستلزم التفضيل في الآخرة»[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ:٣٤-٣٧].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسل، أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الله إذا أرسل رسولًا في قرية من القرى، كفر به مترفوها، وأبطرتهم نعمتهم وفخروا بها،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٤.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٢٢٠.

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ أي: ممن اتبع الحق، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي: أولا لسنا بمبعوثين، فإن بعثنا، فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا، سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة ولا يعذبنا.

فأجابهم الله تعالى، بأن بسط الرزق وتضييقه، ليس دليلًا على ما زعمتم، فإن الرزق تحت مشيئة الله، إن شاء بسطه لعبده، وإن شاء ضيقه، وليست الأموال والأولاد بالتي تقرب إلى الله زلفى وتدني إليه.

وإنما الذي يقرب منه زلفى، الإيمان بما جاء به المرسلون، والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان، فأولئك لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفًا، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة»[1].

وهكذا بيّن تعالى اغترار أهل الكفر بما أنعم عليهم من الأموال والأولاد، ويحسبونه دليلًا على صحة اعتقادهم، وما ذلك إلا من استدراج الله تعالى لهم.

وقد رد الله تعالى عليهم في عدة مواضع من كتابه، ومن ذلك قوله جل شأنه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام:٦].

قال ابن كثير: «قال تعالى واعظًا ومحذرًا لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة، وأكثر جمعًا، وأكثر أموالًا وأولادًا واستغلالًا للأرض وعمارة لها.

فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾، أي: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض، والسعة والجنود، ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾، أي: شيئًا بعد شيء، ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾، أي: أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض، أي: استدراجًا وإملاء لهم، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾، أي: بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترحوها، ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، أي: فذهب الأولون كأمس الذاهب وجعلناهم أحاديث، ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، أي: جيلًا آخر لنختبرهم، فعملوا مثل أعمالهم فهلكوا كهلاكهم.

فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم، لولا لطفه وإحسانه»[2].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٨١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٤٠.

ثانيًا: الإطالة في العمر:

ومن مظاهر استدراج الله تعالى: الإطالة في العمر، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء: ٤٢-٤٤].

فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للمعرضين عن ذكر ربهم: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾ أي: من هو الذي يحفظكم ويحرسكم بالليل في حال نومكم والنهار في حال تصرفكم في أموركم غير الرحمن[1]، أي: لا يعترفون بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه.

ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾، استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أي: ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا ولا كما زعموا؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾، أي: إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال، أنهم متعوا في الحياة الدنيا، ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء»[2].

قال البيضاوي: «إضراب عما توهموا ببيان ما هو الداعي إلى حفظهم، وهو الاستدراج والتمتيع بما قدر لهم من الأعمار، أو عن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك، وهو أنه تعالى متعهم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتى طالت أعمارهم فحسبوا أن لا يزالوا كذلك وأنه بسبب ما هم عليه ولذلك عقبه بما يدل على أنه أمل كاذب فقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾، أرض الكفرة، ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، بتسليط المسلمين عليها، وهو تصوير لما يجريه الله تعالى على أيدي المسلمين، ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، رسول الله والمؤمنين»[3].

فحاصل معنى الآيات: «أي: لا تلتفت- أيها الرسول الكريم- إلى هؤلاء المشركين الذين أعرضوا عن ذكر ربهم، والذين زعموا أن آلهتهم تضر أو تنفع، فإننا قد كلأناهم برعايتنا بالليل والنهار، ومتعناهم وآباءهم من قبلهم بالكثير من متع الحياة الدنيا، حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة، فحملهم ذلك على الطغيان والبطر والإصرار على

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ١٥٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٤٤.

(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٥٢.

الكفر. وسنأخذهم في الوقت الذي نريده أخذ عزيز مقتدر، فإن ما أعطيناه لهم من نعم إنما هو على سبيل الاستدراج لهم»[1].

ثالثًا: تأخير العقاب:

ومن مظاهر استدراج الله تعالى لعباده تأخير عقابه عنهم، فيتهاونون في معصيته ويتجرؤون عليها، أو يستحلونها -كحال أهل الشرك والكفر- ويعتقدون أنهم على حق في ارتكابها، وما ذلك إلا من استدراجه تعالى لهم، ليزدادوا إثمًا وضلالًا، ولو أن الله تعالى عاجل كل مسيء بالعقوبة لما بقي على ظهر الأرض منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر:٤٥].

قال السعدي: «ذكر تعالى كمال حلمه، وشدة إمهاله وإنظاره أرباب الجرائم والذنوب، فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من الذنوب ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: لاستوعبت العقوبة، حتى الحيوانات غير المكلفة. ﴿وَلَٰكِن﴾ يمهلهم تعالى ولا يهملهم و﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ فيجازيهم بحسب ما علمه منهم، من خير وشر»[2]، وقد كان أهل الكفر يغترون بإمهال الله لهم وإمساك العذاب عنهم، وقد ذكر تعالى ذلك في عدة مواضع من كتابه، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال:٣٢].

أي: يقولون إن كان محمد صلى الله عليه وسلم على حق، فلم لا يعذبنا الله، وما علموا أن ذلك من استدراج الله لهم، قال ابن كثير: «هذا من كثرة جهلهم وعتوهم وعنادهم وشدة تكذيبهم، وهذا مما عيبوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: «اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا له، ووفقنا لاتباعه». ولكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب، وتقديم العقوبة»[3].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾ [هود:٨].

ولذلك كانوا يستعجلون العذاب من النبي صلى الله عليه وسلم إنكارًا لوقوعه، فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرد على المشركين قائلًا: ﴿قُلْ لَّوْ أَنَّ

(١) الوسيط، طنطاوي ٩/ ٢١٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٩٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٧.

عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

[الأنعام:٥٨].

«أي: لو أن في قدرتي وإمكاني العذاب الذي تتعجلونه، بأن يكون أمره مفوضًا إلي من قبله تعالى، لقضي الأمر بيني وبينكم، بأن ينزل ذلك عليكم إثر استعجالكم»(١).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ «أي: بحالهم وبأنهم مستحقون للإمهال بطريق الاستدراج لتشديد العذاب، ولذلك لم يفوض الأمر إلي ولم يقض بتعجيل العذاب»(٢).

وهكذا بين الله تعالى استدراجه بعض خلقه بتأخيره العقاب عنهم، ليزدادوا إثمًا وضلالًا.

نماذج قرآنية في الاستدراج

ذكر القرآن الكريم نماذج كثيرة للمستدرجين في قصص الأمم، وواقع الجماعات والأفراد، ليعتبر منها أولو الأبصار والألباب، ويتعرفوا على سنن الله في خلقه.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

[يوسف:١١١].

ومن تلك النماذج:

أولًا: قارون:

وهو من المستدرجين بالمال والثروة.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص:٧٦].

قال ابن عاشور رحمه الله: «كان من صنوف أذى أئمة الكفر للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، ومن دواعي تصلبهم في إعراضهم عن دعوته اعتزازهم بأموالهم، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف:٣١].

أي: على رجل من أهل الثروة، فهي عندهم سبب العظمة ونبزهم المسلمين

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٣٧٩.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٦١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ١٤٣.

بأنهم ضعفاء القوم، وقد تكرر في القرآن توبيخهم على ذلك كقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل:١١].

وقد ضرب الله الأمثال للمشركين في جميع أحوالهم بأمثال نظرائهم من الأمم السالفة، فضرب في هذه السورة لحال تعاظمهم بأموالهم مثلًا بحال قارون مع موسى عليه السلام[١]، أي: كما أن إنعامنا على قارون بالأموال العظيمة، - والتي كانت في غاية الكثرة حتى إن مفاتح خزائنها لتثقل الجماعة القوية عن حمل هذه المفاتيح، فما ظنك بالخزائن؟[٢]، كما أن ذلك الإنعام العظيم عليه لم يكن إلا استدراجًا له، بدليل قوله تعالى في آخر قصته: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص:٨١].

فكذلك أنتم يا كفار قريش وما أوتيتم من الأموال، والتي هي أقل مما أوتي قارون، وأيضًا كما كان قارون يقول عن نفسه وما أوتيه من مال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٧٨].

أي: إنما أعطاني الله هذا المال لعلمه بأني أستحقه، ولمحبته لي، فتقديره: إنما أعطيته لعلم الله في أني أهل له[٣]، وهو من استدراج الله له، كذلك أنتم يا كفار قريش تقولون، وتفخرون بأموالكم، وقد رد القرآن الكريم على قارون.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨].

«أي: قد كان من هو أكثر منه مالًا، وما كان ذلك عن محبة منا له، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لكثرة ذنوبهم»[٤].

وقد بيّن الله تعالى في قصة قارون اغترار بعض قوم قارون بحاله، واعتقادهم أن ذلك من الخير العظيم الذي أوتيه.

قال سبحانه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص:٧٩].

ثم بيّن تعالى أن أهل العلم يعلمون أن ذلك من استدراج الله تعالى، وأن ثواب الله خير وأبقى لمن آمن وعمل صالحًا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٧٤.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٢٣.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٥٤.
(٤) المصدر السابق ٦/ ٢٥٥.

﴿صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص:٨٠].

وهكذا يضرب الله الأمثال لاستدراجه عباده، لعلهم يعتبرون بذلك.

ثانيًا: فرعون وملأه:

ومن المستدرجين بالقوة والملك من الأمم السابقة فرعون وملأه.

قال تعالى حاكيًا عن موسى دعاءه عليهم: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

قال ابن كثير: «هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين، ظلمًا وعلوًا وتكبرًا وعتوًا، قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ أي: من أثاث الدنيا ومتاعها، ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ أي: جزيلة كثيرة، ﴿فِى﴾ هذه ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ بفتح الياء[1]، أي: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم استدراجًا منك لهم...

وقرأ آخرون: ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ بضم الياء، أي: ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم، ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: أي: أهلكها... ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، قال ابن عباس: أي اطبع عليها، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضبًا لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبين له أنه لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء»[2].

وقد اختلف المفسرون في اللام في ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ على أقوال، اختار منها ابن جرير الطبري وأبو حيان[3] أنها لام (كي).

قال الإمام الطبري: «ومعنى الكلام: ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم من زينة الحياة الدنيا والأموال لتفتنهم فيه، ويضلوا عن سبيلك عبادك، عقوبة منك. وهذا كما قال جل ثناؤه: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦-١٧]»[4].

وقال أبو السعود: «وقيل: اللام للعاقبة وهي متعلقة بآتيت، أو للعلة؛ لأن إيتاء النعم على الكفر استدراج وتثبيت على

(١) قرأ الكوفيون بضم الياء، والباقون بفتحها. انظر: البدور الزاهرة، عبد الفتاح القاضي ص١٥٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٩٠.

(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٦/ ٩٩.

(٤) جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٧٩.

الضلال»[1].

وهكذا ذكر الله تعالى استدراجه لآل فرعون بما أعطاهم من الأموال والزينة في الحياة الدنيا، ثم أهلكهم وجعلهم عبرة لمن يعتبر.

ثالثًا: صاحب الجنتين:

ومن أمثلة استدراج الله تعالى للعصاة ما جاء في قصة صاحب الجنتين، وقد ذكرها تعالى في سورة الكهف في سياق الرد على كفار قريش الذين كانوا يفتخرون بأموالهم على فقراء المسلمين وضعفائهم، ويمتنعون عن الجلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم والاستماع له بسبب وجود هؤلاء الفقراء في مجلسه، وقد أنزل الله تعالى في ذلك قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

قال الشنقيطي: «أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة: أن يصبر نفسه، أي: يحبسها مع المؤمنين الذي يدعون ربهم أول النهار وآخره مخلصين له، لا يريدون بدعائهم إلا رضاه جل وعلا، وقد نزلت هذه الآية الكريمة في فقراء المهاجرين كعمار، وصهيب، وبلال، وابن مسعود ونحوهم، لما أراد صناديد الكفار من النبي صلى الله عليه وسلم أن يطردهم عنه، ويجالسهم بدون حضور أولئك الفقراء المؤمنين»[2].

وما علم كفار مكة أن كثرة أموالهم، وما هم فيه من النعم، هو من استدراج الله لهم، فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يضرب لكفار قريش قصة صاحب الجنتين مثلًا لذلك الاستدراج، وأن إيتاء الله الأموال لبعض عباده، وتركهم يفتخرون بها على غيرهم، لا يدل على حبه تعالى لهم، ورضاه عنهم.

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف:٣٢-٣٣].

قال الرازي: «اعلم أن المقصود من هذا أن الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين، فبيّن الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنيًا والغني فقيرًا، أما الذي يجب حصول المفاخرة به فطاعة الله وعبادته، وهي حاصلة لفقراء المؤمنين، وبيّن ذلك

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٧٤.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٦٣.

بضرب هذا المثل المذكور في الآية»[1].

وقال الحافظ ابن كثير: «يقول الله تعالى بعد ذكر المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلًا برجلين، جعل الله ﴿لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾، أي: بستانين من أعناب، محفوفتين بالنخل المحدقة في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجود؛ ولهذا قال: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾، أي: أخرجت ثمرها ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾، أي: ولم تنقص منه شيئًا، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾، أي: والأنهار تتخرق فيهما هاهنا وهاهنا»[2].

ثم ذكر تعالى حوارًا دار بين هذين الرجلين، بيّن تعالى فيه ظلم صاحب الجنتين لنفسه، وافتخاره على صاحبه، قال سبحانه: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٤-٣٦].

أي: قال «صاحب هاتين الجنتين لصاحبه ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾، أي: يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس، ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، أي: أكثر خدمًا وحشمًا وولدًا»[3].

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾، قيل: إنه أخذ بيد أخيه المؤمن يطوف به فيها ويريه أثمارها[4]، ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾، أي: «بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد، ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾، وذلك اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى، ولا تفرغ، ولا تهلك، ولا تتلف، وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة»[5].

قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، أي: «أنكر البعث بعد إنكاره لفناء جنته، قال الزجاج: أخبر أخاه بكفره بفناء الدنيا وقيام الساعة، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ اللام هي الموطئة للقسم، والمعنى: أنه والله إن يرد إلى ربه فرضًا وتقديرًا كما زعم صاحبه، واللام في ﴿لَأَجِدَنَّ﴾، جواب القسم والشرط، أي: لأجدن يومئذ ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾»[6].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٦٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٧.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٤٠٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٧.
(٦) فتح البيان، القنوجي ٨/ ٥٢.

قال أبو السعود: «ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة اعتقادٌ أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه في الدنيا لاستحقاقه الذاتي وكرامته عليه سبحانه، ولم يدر أن ذلك استدراجٌ»[1].

وقد بيّن الله تعالى عاقبة استدراجه لهذا الكافر المكذب، فقال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف:٤٢].

فأخبر الله تعالى عن ذلك الرجل الكافر الظالم لنفسه، الذي كان يظن أن بساتينه وثماره لن تبيد أبدًا، وأنه أوتيها لخير فيه واستحقاق لها، وأنه إن رد إلى ربه على فرض وقوع ذلك فسيجد أعظم وأفضل من هذه الجنة، - وما ذاك إلا من استدراج الله تعالى له - فأخبر الله تعالى عن عاقبة استدراجه له في الدنيا، فقال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾، أي: أحاط الهلاك بصنوف ثماره وأشجاره كما يحيط القوم بعدوهم فيهلكونهم عن آخرهم[2].

قال الفخر الرازي: «﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ وهو عبارة عن إهلاكه بالكلية، وأصله من إحاطة العدو؛ لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ثم استعمل في كل إهلاك ومنه قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف:٦٦]»[3]،

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٢٢٢.
(٢) انظر: البسيط، الواحدي ١٤/ ٢٧.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٧٦٩.

«والمعنى: أتلف ماله كله بأن أرسل على الجنة والزرع حسبان من السماء فأصبحت صعيدًا زلقًا، وهلكت أنعامه وسلبت أمواله، أو خسف بها بزلزال أو نحوه»[4].

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾، أي: يقلب كفيه ظهرًا لبطن أسفًا وتحسرًا على ذهاب نفقته التي أنفقها في جنته وعمارتها وتزيينها، وقد ضاعت هباءً، وذهبت سدى، ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، وجنته ساقطة ومتهدمة على دعائمها وعلى سقوفها، والمقصود أن الجنة بجميع ما اشتملت عليه، صارت حطامًا وهشيمًا تذروه الرياح[5].

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾، أي: أخبر الله تعالى أنه لما سلبه ما أنعم به عليه، وحقق ما أنذره به أخوه المؤمن في الدنيا، ندم على شركه حين لا تنفعه الندامة[6]، وقال الزمخشري: «علم أنه أتي من جهة شركه وطغيانه فتمنى لو لم يكن مشركًا، حتى لا يهلك الله بستانه»[7].

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٢٦، وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٦٠.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٧، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ١٧٣، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٤١، التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٥٢١.
(٦) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٨٦.
(٧) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٧٢٤. وانظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٧/ ١٨١.

رابعًا: الكافر المغتر بماله وولده:

ومن نماذج المستدرجين، الكافر المغتر بماله وولده.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [مريم: ٧٧-٨٠].

قال المفسرون: نزلت الآية في العاص بن وائل[١] أحد زعماء المشركين بمكة، روي عن خباب رضي الله عنه، قال: (كنت قينًا[٢] في الجاهلية، وكان لي على العاص بن وائلٍ دينٌ، فأتيته أتقاضاه، قال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، فقلت: (لا أكفر حتى يميتك الله، ثم تبعث[٣]، قال: دعني حتى أموت وأبعث، فسأوتى مالًا وولدًا فأقضيك). فنزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾[٤].

والآيات -وإن كانت نازلة في كافر معين- فإنها تشمل كل كافر، زعم أنه على الحق، وأنه من أهل الجنة[٥] استدراجًا من الله تعالى له.

والمعنى: أن الله تعالى يعجب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم من مقالة هذا الكافر الذي يزعم رغم كفره وإعراضه، أنه سيجازى في الآخرة أموالًا وأولادًا، قال: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾، «واللام في ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ هي الموطئة للقسم، كأنه قال: والله لأوتين في الآخرة مالًا وولدًا»[٦]، والنون للتوكيد، وقال في قسمه الحانث (لأوتين)، أي: أنه بإرادته وقدرته الواهمة سيكون له مال[٧].

وهذا كله من غروره وجهله، واستدراج الله تعالى له، قال الشوكاني: «أي: انظر إلى حال هذا الكافر، وتعجب من كلامه وتأليه

(١) انظر: البسيط، الواحدي ١٤/ ٣١٠.
(٢) قينًا: أي حدادًا أو صائغًا.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤/ ١٣٥.
(٣) قال ابن حجر: «قوله: فقلت: لا أكفر حتى يميتك الله، ثم تبعث، مفهومه أنه يكفر حينئذ، لكنه لم يرد ذلك؛ لأن الكفر حينئذ لا يتصور، فكأنه قال لا أكفر أبدًا، والنكتة في تعبيره بالبعث تعيير العاص بأنه لا يؤمن به»، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني ٨/ ٤٣٠.
(٤) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ذكر القين والحداد، ح٢٠٩١، ٣/ ٦٠، صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب سؤال اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]. الآية، ح٢٧٩٥، ٤/ ٢١٥٣.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٩٩.
(٦) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤١١.
(٧) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٦٨٢.

على الله، مع كفره به، وتكذيبه بآياته»[1].

ثم أجاب سبحانه عن قول هذا الكافر بما يدفعه ويبطله، ويبين غروره وجهله، فقال: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾؟ ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾، وهو حرف ردع وزجر، أي: ليس الأمر على ما قال هذا الكافر من أنه يؤتى المال والولد، ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾، أي: سنحفظ عليه ما يقوله فنجازيه في الآخرة، ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي: نزيده عذابًا فوق عذابه مكان ما يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد، أو نطول له من العذاب ما يستحقه، وهو عذاب من جمع بين الكفر والاستهزاء، ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾، أي: نميته فنرثه المال والولد الذي يقول إنه يؤتاه ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾، أي: يوم القيامة لا مال له ولا ولد، بل نسلبه ذلك، فكيف يطمع في أن نؤتيه[2].

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤١١.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٤١٢.

عاقبة المستدرجين

أولًا: عاقبة المستدرجين في الدنيا:

للاستدراج عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة، وقد بيّن الله تعالى في كتابه العزيز عاقبة المستدرجين ومآلهم، تحذيرًا من سلوك طريقهم وولوج سبيلهم، والوقوع فيما وقعوا فيه من الخسران العظيم.

ومن هذه العواقب في الدنيا: أن يأخذهم الله تعالى أخذًا شديدًا مفاجئًا لهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥].

«والبغتة فعلةٌ من البغت وهو الفجأة، أي: حصول الشيء على غير ترقب عند من حصل له وهي تستلزم الخفاء»[3].

ومعلوم أن الأخذ فجأة أشد إيلامًا وإفزاعًا مما يسبقه استعداد وتحضر، ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، أي: انقطع رجاؤهم؛ لأن العذاب كان بغتة حصل الإبلاس لهم، كالذي يتعلل لما يقع له بقوله: كانت فجأة، أي: ليس بوسعي أن أستعد أو أحتاط لذلك، قال الفراء: «المبلس: اليائس المنقطع رجاؤه، ولذلك قيل للذي يسكت

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٣١.

عند انقطاع حجته، ولا يكون عنده جواب: قد أبلس»[1]، وقال الألوسي: «أنزلنا بهم العذاب ﴿بَغْتَةً﴾، أي فجأة ليكون أشد عليهم وأفظع هولًا... ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، أي آيسون من النجاة والرحمة... ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، أي: آخرهم... فالمراد أنهم استؤصلوا بالعذاب ولم يبق منهم أحد... ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، على ما جرى عليهم من النكال والإهلاك، فإن إهلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم الفاسدة وأعمالهم الخبيثة نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها، فهذا منه تعالى تعليم للعباد أن يحمدوه على مثل ذلك»[2].

وقال المراغي: «أخذناهم بعذاب الاستئصال حال كونهم مبغوتين، إذ فاجأهم على غرة من غير سبق أمارات ولا إمهال للاستعداد أو للهرب، فإذا هم مبلسون، أي: يائسون من النجاة»[3].

وقال الواحدي: «قال أهل المعاني: (إنما أخذوا في حال الرخاء ليكون أشد لتحسرهم علي ما فاتهم من حال السلامة والعافية والتصرف في ضروب اللذة إلى حال البلية والنقمة)»[4].

وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم أمثلة كثيرة في أخذه المستدرجين وانتقامه منهم في الدنيا، كفرعون وقومه أغرقهم الله تعالى، قال عز وجل: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف:١٣٦].

وعاد أرسل عليهم ريحًا صرصرًا عاتية، وثمود أهلكهم بالصيحة.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقة: ٥-٦].

وقارون خسف به الأرض.

قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص:٨١].

وصاحب الجنتين دمر تعالى عليه جنته.

قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف:٤٢].

وغيرهم الكثير.

وقال الله تعالى مسليًا نبيَه صلى الله عليه وسلم في تكذيب قومه له: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ

(١) معاني القرآن، الفراء ١/ ٣٣٥.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١٢/ ١٦٨.
(٣) تفسير المراغي، ٧/ ١٢٥.
(٤) البسيط، الواحدي ٨/ ١٤١.

﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٢-٤٦].

أخبر تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أنه كما كذبك قومك فقد كذبت الأمم والأقوام السابقة أنبياءهم، فأمليت لهم، وأمهلتهم، وأخرتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، «أي: فكيف كان إنكاري عليهم، ومعاقبتي لهم؟!»[(١)].

ثم أخبر تعالى عما كانت عليه تلك الأمم، وأولئك الأقوام من النعيم والمتع التي استدرجهم تعالى بها، فقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ أي: كم من قرية أهلكها الله بالعذاب الشديد، لظلمها بكفرها بالله وتكذيبها لرسله، فسقطت عروشها، وأصبحت ديارها وقصورها خرابًا بعد أن كانت عامرة، وموحشة بعد أن كانت آهلة بأهلها آنسة، وصارت آبارها التي كانت يزدحم عليها الخلق لشربهم، وشرب مواشيهم، متروكة قد عدم منها الوارد والصادر، وأصبح أهل هذه القرى عبرة لمن اعتبر[(٢)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٣٧.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٤٠.

كما حذر تعالى عباده من هذه العاقبة الوخيمة فقال عز شأنه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩].

والمعنى أنه تعالى ينكر على أهل القرى المكذبة لرسلها عدم خوفهم من بأسه الشديد وعقابه الأليم، أن يأتيهم وقت بياتهم وهم غارقون في نومهم؟ أو وقت ضحى النهار وانبساط الشمس، وهم منهمكون فيما لا نفع فيه لهم؟[(٣)].

ثم قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، أي: أفأمن هؤلاء المكذبون استدراج الله إياهم بما أنعم به عليهم في دنياهم من صحة الأبدان ورخاء العيش، فإن مكر الله لا يأمنه، إلا القوم الهالكون[(٤)].

وهكذا يحذر الله تعالى عباده من وقوع عقابه الأليم بهم.

ثانيًا: عاقبة المستدرجين في الآخرة:

ومن عواقب المستدرجين في الآخرة، العذاب الأليم والنكال العظيم في نار جهنم وبئس المصير.

(٣) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص٢٢١.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٧٨.

قال تعالى في حق فرعون وقومه: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر:٤٦].

فبيّن الله تعالى عذابهم في البرزخ بقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، وبيّن عذابهم في الآخرة بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[1]، وقال تعالى في حق الوليد بن المغيرة: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر:٢٦].

أي: أدخله جهنم[2].

وقال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩].

يقول تعالى - مبينًا حال المكذبين لرسوله من كفار قريش وما آل إليه أمرهم-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾، ونعمة الله هي إرسال محمد صلى الله عليه وسلم إليهم، يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة، وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة، فبدلوا هذه النعمة بردها، والكفر بها والصد عنها بأنفسهم، وصدهم غيرهم حتى ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾، وهي النار حيث تسببوا بإضلالهم، ومن ذلك أنهم زينوا لهم الخروج يوم بدر، ليحاربوا الله ورسوله، فجرى عليهم ما جرى، وقتل كثير من كبرائهم وصناديدهم في تلك الوقعة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾، أي: يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾[3].

وبيّن تعالى أنه يضاعف العذاب للمستدرجين في الآخرة.

قال تعالى في حق العاص بن وائل: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [مريم:٧٧-٨٠].

قال الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله ﴿كَلَّا﴾: ليس الأمر كذلك، ما اطلع الغيب، فعلم صدق ما يقول، وحقيقة ما يذكر، ولا اتخذ عند الرحمن عهدًا بالإيمان بالله ورسوله، والعمل بطاعته، بل كذب وكفر.

﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾، يقول: ونزيده من العذاب في جهنم بقيله الكذب والباطل في الدنيا، زيادة على عذابه بكفره بالله»[4].

وهكذا يبين الله تعالى عاقبة المستدرجين

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٣٨٩.
(٢) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٧٧٧.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٤٨ بتصرف يسير.

في الدنيا والآخرة، ويحذر بذلك عباده من استدراجه وكيده لمن عصاه وأعرض عن طاعته.

موضوعات ذات صلة:
الابتلاء، الفتنة، العذاب